ثيمة الموت في رواية "ليليات رمادة" للجزائري واسيني الأعرج

The theme of death in the novel "Ramadan Nights" by the Algerian Wasini Al-Araj

د. رحمة الله أوريسي

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي (الجزائر)، Rahmatouallahe_ourici@mail.ru

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2023 / 11 / 15	2024 / 01 / 25	2024 / 03 / 01

ملخص البحث

تسعى هذه المداخلة إلى تتبع ثيمة الموت في رواية "ليليات رمادة "للجزائري واسيني الأعرج؛ باعتبارها موضوعا بانيا، أسس من خلاله الكاتب حكايته، حيث اتكأ على الواقع المعيش-في لحظته- الذي انتشرت فيه الجائحة/جائحة كورونا/الوباء، فنقل لنا الكاتب في قـــالب سردي سلبيات الحجر الصحي، وتبعيات الجائحة، التي كشف من خلالها عن هشاشة الأسر، وهشاشة العلاقات، بالإضافة إلى حديثه عن المسكوت عنه داخل المجتمع، انطلاقا من هذا تطرح المدخلة الإشكالية الآتية: كيف شكل موضوع الجائحة موضوعا بانيا في الرواية الجزائرية المعاصرة؟ وفي رواية ليليات رمادة؟ وكيف وظفه الكاتب؟ ولماذا؟ كيف تمظهرت ثيمة الموت في رواية ليليات رمادة؟ وكيف استثمر الكاتب موضوع الجائحة في معالجة فكرته؟ إلى غيرها من الأسئلة التي تنسال من بعضها البعض. لعل هذا ما تروم المداخلة الإجابة عنه والتي لا تخرج عن إطار المحور الخامس.

الكلمات المفاتيح: الثيمة، الجائحة، ليليات رمادة، الرواية، الدلالة.

Abstract

This intervention seeks to trace the theme of death in the novel "Ramadan Nights" by the Algerian Wassini Al-Araj; as a constructive topic, through which the writer established his story, as he relied on living reality at his moment when the pandemic / Corona pandemic/epidemic spread, so the writer conveyed to us in the form of My narrative of the negatives of quarantine, and the consequences of the pandemic, through

which he revealed the fragility of families and the fragility of relationships, in addition to his talk about the unspoken within society. Based on this, the following problematic entry is raised: How did the topic of the pandemic form a constructive topic in the contemporary Algerian novel? And in the novel Liliat Ramada And how did the writer employ it? And why? How did the theme of death appear in the novel Ramada Nights? And how did the writer invest the topic of the pandemic in addressing his idea? To other questions that arise from each other.

Keywords :theme - pandemic - novel - significance.

1. مقدمة:

لقد شكلت ثيمة الموت نسقا مهيمنا في الرواية الجزائرية المعاصرة، الأمر الذي جعلها ظاهرة بارزة تستدعي التأمل، والتحليل خاصة في الفترة الأخيرة التي كثرت فيها الحروب، والصراعات السياسية والأمراض القاتلة، والتفككات الأسرية، وغيرها، الأمر الذي جعل النص الروائي يمتزج بالتشاؤم الداخلي الذي يعبر عن حقيقة نفسية الإنسان الجزائري المنكسرة، والمنهزمة أمام الخوف[1] من الواقع الذي أصبح الموت يسيطر عليه، خاصة بعد انتشار جائحة كرونا في العالم بأسره، والتي بدورها أدت إلى وفاة فئة كبيرة من البشرية، هذا الوباء الذي رافقته جملة من التدابير الاحترازية، التي دفعت بالكتّاب إلى التأّريخ لهذه المرحلة من الحياة، فكان الحجر المنزلي سببا واضحا، ودافعا كبيرا، لمحاربة الموت بالكتابة؛ لأن العزلة، أو الإجبار عليها هي موت ضمني.

وتعتبر رواية ليليات رمادة للجزائري واسيني الأعرج من بين الروايات العربية التي احتضنت هذه الثيمة، حيث سعى كاتبها من خلالها إلى كسر نمطية الحياة التي فرضت آنذاك/العزلة/الحجر، والخروج عن المألوف، من خلال طرح موضوع يعالج الظروف الصحية التي يعيشها العالم في لحظتها من جهة، بالإضافة إلى طرح موضوع آخر متمثل في الظروف، والعلاقات الاجتماعية، وما آلت إليه فترة الحجر الصحي؛ بحيث لم تتجل ثيمة الموت في رواية ليليات رمادة بصورة واضحة فقط، بل طرحها الكاتب بصورة رمزية أيضا حيث استدعانا بطريقة أو بأخرى إلى الوقوف عندها. وقد تجلت هذه الثيمة على مستويين مستوى العتبات ومستوى المتن، وقبل تتبع ذلك، لعل الضرورة المنهجية تفرض علينا الإشارة إلى بعض المفاهيم النظرية، وسنبدأ بـ:

2. الثيمة Them:

لقد ربط بعض النقاد مفردة الثيمة كمفهوم بالموضوعاتية، بل اعتبروها جزءً من النقد الموضوعاتي لأن ظهورها تزامن معه. كما أن مصطلح الموضوعاتي"Thematique" مشتق من في الحقل المعجمي الفرنسي، ومأخوذة من كلمة"Them" والتي تعني الثيمة[2]، وهو ما يعني أن العلاقة بين المفردتين هي علاقة الكل بالجزء؛ لأن الثيمة جزء من الكل "الموضوعاتي".

ولو حاولنا تقصي دلالة كلمة الثيمة فيمكن القول بأنها تعني: «الفكرة المتواترة في العمل الأدبي، والتي تستعمل أحيانا بمعنى الحافر الكثير التواتر. غير أن "الثيمة" أكثر عمومية وتجريدا وتجاوزا».[3]، وقد وردت المفردة بنفس الدلالة عند جان بول ويبر J.p.Weber الذي عرفها بأنها:«الصورة المتفردة والملحة في تكرارها،

واطرادها، والمتواجدة بشكل مهيمن في عمل أدبي عند كاتب ما»[4] فالصورة، أو الفكرة المتكررة في عمل ما هي الثيمة أو الموضوع. وقد وردت المفردة في الكثير من القواميس، والمعاجم الأجنبية، الإنجليزية، والفرنسية، ولعلها في معظمها تتوافق مع الدلالات السابقة، ويمكننا أن نستحضر بعض ما ورد في قاموس أكسفورد باللغة الإنجليزية قوله « Theme :the subject of a talk, a piece of writing or a person s thoughts [5]وهو ما يمكن ترجمته إلى:الموضوع: موضوع حديث، أو قطعة من الكتابة، أو أفكار الشخص. ولا يبتعد جان بيير ريشار(Richard) عن المفاهيم السابقة لدلالة الثيمة حيث يعرفها بأنها «مبدأ تنظيمي محسوس ينتظم حوله عالم بكامله إلى التشكل والامتداد والأهم فيه هو هذه(القرابة السرية)بتعبير مالارميه، أي هذه الهوية الخفية (Identité Cachée) التي تتجلى في مظاهر متنوعة، فالتيمات الرئيسية للعمل الأدبي، تلك التي تشكل معماره اللامرئي والتي تمنحنا مفتاحه ،هي تلك الثيمات التي نجدها باستمرار تتكرر في العمل بوتيرة ظاهرة واستثنائية، وهذا التكرار يشير إلى الهاجس الذي يتملك الكاتب»[6].

ومن ثمة يمكن أن نخلص إلى أن الثيمة أو (الموضوع) هي العنصر المتكرر في النص، وهي: «ما يدور حوله الأثر الأدبي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو هي الفكرة الجوهرية التي أراد المبدع التعبير عنها..»[7] ولعلنا سنحاول تتبع الفكرة، أو الموضوع الذي أراد المبدع التعبير عنه، ونعني ثيمة الموت، وذلك على مستويين، العتبات، والمتن، سنبدأ بـ:

2.2. ثيمة الموت على مستوى العتبات:

لقد استطاع الروائي أن يوظف ثيمة الموت على مستوى الغلاف، والعنوان، والتصدير، وهو ما يجعلنا نفهم بأن العتبات النصية تساعد في إدراك هذا الموضوع على مستوى السرد؛ باعتبار أن العتبة ذات دلالة وتضطلع بوظيفة من الوظائف داخل النص، ولا يمكن أن تكون بريئة في وضعها، وموقعها وتركيبها، ما دام يتعين عليها مواجهة بياض الصفحة الأولى، حيث تعمل على تخفيف حدة التوتر الذي يعتري القارئ، وهو يشرع في تلقي الأثر الأدبي، والقوة التلفظية للعتبة، هي التي تقود ضمنيا نحو النص للبحث عن بعدها الوظيفي؛ لأن كل عتبة في جميع تمظهراتها ما هي إلّا خطاب خاضع، مساعد، وجاهز لخدمة شيء آخر،[8]ولعل هذا ما لمحناه في رواية "ليليات رمادة" بجزئيها "تراتيل ملائكة كوفيلاند" و"رقصة شياطين كوفيلاند" التي حملت ملامح هوية النص، حيث قدم لنا الكاتب إشارات أسلوبية، ودلالية، أولية، استطعنا من خلالها تبني رؤية محتملة حول النص، كما وفر لنا واسيني الأعرج معلومات في حدها الأدنى عن النص المرتقب/ المتن[9]بدءا من الغلاف الذي يحمل الوجه الآخر للموت/الحياة، والعناوين الفرعية، والتصديرات. وقبل البدء في التحليل سنحاول عرض موجز عن الرواية.

3-وقفة عند الرواية:

قبل الحديث عن الرواية وإعطاء ملخص عنها يمكن القول بأن العنوان "ليليات رمادة" يجعلنا ننبش في التاريخ الذي ارتبط بمشاهد وموضوعات الموت، فمفردة الرماد تعيدنا إلى عهد عمر بن الخطاب، وعام

الرماد، الذي مات فيه العديد من الأشخاص بسبب الوباء/الطاعون؛ أي أن الروائي أحالنا مباشرة على الوباء، وثيمة الموت من خلال هذه العتبة، ولعله قام بتأكيد هذا الأمر من خلال العنوان الفرعي الذي أردفه في آخر الغلاف"تراتيل ملائكة كوفيلاند"،"ورقصة شياطين كوفيلاند" وفي ذلك إشارة إلى عصرنا الحاضر من خلال مصطلح بـ"كوفيلاند"والتي تحيلنا على مفردة كوفيد، والتي تعني الوباء، ومن ثمة يحاول الكاتب أن يشعرنا من خلال هذه المفردة على مدينة الموت، والتي تبدو في ظاهرها بأنها حقيقية، ولكنها في حقيقة الأمر مدينة متخيلة.

أما عن الرواية فيمكن القول بأنها تحكي قصة فتاة اسمها رمادة على حافة الطلاق من زوج عصبي، عاشت قصة حب مع شخصية اسمها شادي وهو موسيقار "مايسترو" جاء في رحلة عمل إلى العاصمة/الجزائر لإحياء سهرته الأخيرة في دار الأوبرا الوطنية قبل عودته نحو فيينا. يلتقي البطلان فتتغير حياتهما كليا. ليلة واحدة في بيته الساحلي جعلتهما يكتشفان الحياة الكامنة فيهما من جديد ليذهبا بعيدا في مغامرة مجنون مع الحياة. تنقلب أحداث السرد حين يكتشف شادي وهو في فينا إصابته بفيروس كورونا، وفي الشق الآخر تصدم رمادة بحملها الذي يجعلها تدخل في دوامة شك ما إذا كان الجنين من شادي أو ابن زوجها كريم، وهنا يلعب الحب عاملا مهما في منح كل من شادي ورمادة الرغبة في الحياة، والتمسك بها، فيسعى شادي إلى التغلب على مرضه، وفي الشق المقابل تنكفئ رمادة في ليالي الانكفاء الباردة والعزل/الحجر المنزلي هروبا من واقعها الموجع، وحياتها البائسة فتقرر كتابة رسائل لحبيبها شادي متمسكة بأمل أن الجنين ابنه؛ فتأتي كتاباتها على شكل ليليات شاركنا بها الروائي فترة الحجر المنزلي. وعلى الرغم من أن البطلة كانت تعرف سلفا أن حبيبها شادي لن يقرأ ليلياتها بسبب وهنه الصحي إلاّ أنها كانت تكتبها في كل ليلة ربما لتمنح نفسها بالحكي متسعا من الأمل والحياة والحب، ولعل الذي أشعل فتيل الحب الذي انطفأ حين خاب أمل رمادة من عودة شادي أو رده عليها أثناء خوفها عليه-وهو يعاني من المرض-هو غيرتها من عازفته ميشا المرأة الملتبسه بين الابنة التي أنقذها من الجنون والحبيبة الغامضة في نظرها.[10] يغطي الرواية هذا الطابع الحساس من جهة، ومن جهة أخرى يسرد لنا الروائي على لسان رمادة وليلياتها ما يحدث في المجتمع الجزائري من تجاوزات اجتماعية، واقتصادية، وسياسة، ودينية. والعلاقات الأسرية، والصراعات التي كشفها الحجر الإجباري.

ومن ثمة يمكن القول بأن الرواية يغطيها طابع الموت، فكل الملابسات جرت في مدينة الموت/ كوفيلاند؛ لأن المرض علامة من العلامات التي تحيل على الموت، والحياة التي كانت الشخصيات الروائية تحاول أن تعيشها لم تكن حياة، بقدر ما كانت رغبة في الحياة، أو هروب من الموت إلى الحياة؛ فالصراعات الداخلية التي كانت تعيشها رمادة مع زوجها كريم، وصراعات الأسر الجزائرية بسبب الحجر المنزلي، هي موت ضمني تأسس داخل منظومة أسرية هي في الأصل فاشلة. والكاتب استحضر لنا في هذا النص الروائي بشاعة الواقع، وكشف لنا عن طريق المرض هشاشة العلاقات الزوجية، والعلاقات الاجتماعية، والمؤسسات الصحية، بل كشف لنا عن الكثير من الملابسات التي مازالت تحصل في الوطن العربي، والجزائري من تهريب للأعضاء، وتهريب للمخدرات، وهي صورة أخرى رمزية للموت، لأن فساد المجتمع، وانهيار العلاقات

الاجتماعية هي موت ضمني للمجتمع. وسنحاول أن نفصل في هذا الأمر من خلال تتبع ثيمة الموت داخل المتن. وقبل ذلك سنبدأ بـ:

3-1- ثيمة الموت على مستوى الغلاف:

بالعودة إلى الغلاف يمكن القول بأنه يمثل علامة سيميائية يمكن أن يحدد القارئ من خلاله كنه الرواية بصورة ابتدائية، فهو لوحة فنية ذات دلالات إيحائية تعمل على تحفيز المتخيل الذهني، وهذا بالكشف عن حيز ما من مضمون النص السردي بصفة قصدية؛ فالغلاف الخارجي ما هو إلاّ امتداد للمتن، بل وجزء لا يتجزأ منه، إنه الواجهة الأمامية، والخلفية التي لا يمكن لأي كاتب أن يستغني عنه[11] الأمر الذي يمنحه مكانة هامة، ودورا فعالا في بناء النص وتلقيه، حيث من خلاله تقل حاسة السمع، وتأخذ حاسة البصر دورها من جديد[12]وقد استطاع واسيني الأعرج أن ينقل لنا من خلال جملة الأيقونات البصرية، والعلامات التشكيلة، واللوحات الفنية، والخطوات الكاليغرافية [13]جملة من الدلالات حاول أن يبني من خلالها كونا تخييليا من جهة، ويوصل مقصدية من جهة أخرى، ويحمّل خطابه البصري رؤية لغوية، ودلالة بصرية من جهة ثالثة. ولعل المتأمل لغلاف رواية ليليات رمادة سيجد بأنه يحمل قيمة دلالية، ارتبطت ارتباطا وثيقا بثيمة الموت.

3-2- ليليات رمادة(*):

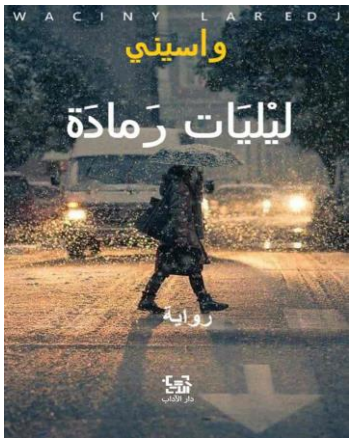

إن المتأمل لصورة الغلاف سيجد بأنها صورة حية، نابضة بالحياة، بل تشبه في عمومها مشهدا من المشاهد المتكررة على الدوام في حياتنا الطبيعية، صورة لفتاة تعبر الطريق في زحام من السيارات، هذه الفتاة التي تحيط بها أجواء باردة هل هي نفسها رمادة التي حملت الرواية اسمها في عتبة العنوان؟ وما علاقة هذه العتبة بثيمة الموت؟ على الرغم من أن المشهد الذي حوته صورة الغلاف يجعلنا نستبعد ثيمة الموت، إلاّ أن الفتاة التي تقطع الطريق بمفردها قد تحيلنا على الوجه الآخر للموت/الحياة، لأن الكاتب من خلال طرحه لثيمة الموت في هذا النص الروائي هو يبحث بصورة ضمنية عن الحياة. ولو تأملنا كل التفاصيل الخارجية المحيطة بالفتاة سنجدها نابضة بالحياة، في حين أن التفاصيل الداخلية الخاصة بها تعبر عن شيء آخر قد يكون مرادفا بصورة رمزية للموت، فهي فتاة مطأطأة الرأس، وكأنها مهمومة، تفكر في أمر ما، بل وتعيش عزلة ما بينها وبين نفسها، تبعدها عن الضوضاء/ضوضاء السيارات التي تحيط بها وهي تقطع الطريق. وهذا قد يدل على حالة من الضياع، والعزلة الداخلية التي تعيشها هذه الفتاة. وعلى الرغم من أن هذا المشهد واقعي/مرجعي بكل ما فيه من حيثيات، مظلة، مطر، سيارات، يحيلنا على صورة من صور الواقع؛ إلاّ أنه لا يحيلنا على مضمون النص الروائي بل يحيلنا على

الوجه الآخر له. ومن ثمة يبدو الغلاف متكتما على نفسه بعض الشيء، لعل العنوان سيفسر لنا أكثر ما يريد أن يعبر عنه الكاتب داخل نصه.

3-3- ثيمة الموت على مستوى العنوان:

على الرغم من أن العنوان جزء لا يتجزأ من بنية الغلاف، إلاّ أن الأول يعتمد في دلالته على علامات بصرية/صورية، في حين أن الثاني يرتكز أكثر على العلامات اللغوية، ولعل هذا الاختلاف يرجع بالأساس إلى طبيعة كل مكون على حدى، وكذا إلى الدور الموكول إليه أن يقوم به في اقتصاد النص، والأهداف الجمالية التي يعمل على تحقيقها،[14]وبالنظر في طبيعة العنوان سنجد بأنه يحتفظ بمميزاته بعيدا عن باقي العتبات الأخرى؛ فهو علامة جوهرية للمصاحب النصي، رغم اختلاف النقد في صياغة وضعه الاعتباري، وهو تارة جزء من النص، أي المتوالية اللسانية الأولى فيه، وتارة أخرى مكون خارجي، أي العنصر الأكثر خارجية ضمن المصاحبات النصية المؤطرة للعمل[15]،ولعلنا في هذا المقام سنحاول دراسة هذه المتوالية اللسانية-الخاصة برواية واسيني الأعرج-كجزء لا يتجزأ من النص من جهة، وكعتبة تلخص لنا النص قبل الغوص فيه من جهة أخرى، وهنا يمكن أن نخلص إلى أن العناوين الخاصة بهذه الرواية في جزئيها تشترك في عمومها، بل تحاكي موضوع الموت؛ فمفردة "كوفيلاند" التي تكررت في الجزأين فيها إحالة على ثيمة الموت/كوفيد/المرض/الوباء/ كورونا/ولكن بطريقة غير مباشرة، لتصبح مفردة كوفيلاند معادلا موضوعيا للموت، أو شكلا من أشكاله.

4- ثيمة الموت على مستوى التصدير:

بالعودة إلى تصديرات رواية ليليات رمادة "سنجد بأن الكاتب ضمنها تصديرا واحدا غيريا، واكتفى بتصدير واحد ذاتي، وقد ربطها في مجملها بثيمة الموت حيث استحضر الوباء كمادة دسمة، فجاء بمقولة كتبت على قبر نيكولاس كزنتزاكي، والتي يقول فيها: "لا أنتظر شيئا، ولا أخاف من شيء، فأنا حر"[(*)]وبالنظر في الهامش الذي أرفقه الكاتب مع هذه المقولة فسنجد بأن هذه العبارة كتبت تنفيذا لوصية الروائي اليوناني نيكولاس على قبره بعد أن منعت الكنيسة دفنه في المقبرة المسيحية بسبب وفاته بكوفيد زمانه "الحمى الآسيوية".

وهنا نلتمس حضور ثيمة الموت على مستوى التصدير بصورة رمزية وبصورة مباشرة، حيث استحضر الكاتب الحمى الآسيوية، وهي استحضار للوباء الذي يعد مرادفا للموت، بالإضافة إلى استحضار الموت في حد ذاته من خلال استدعائه لشخصية روائية توفيت بفعل هذا الوباء، وتم عزلها، وهنا العزلة تعد مرادفا آخر للموت. ونيكولاس على الرغم من أن مقولته تنفتح على الحرية إلاّ أنها تروم داخلها القيد/الموت المرتبط بالوباء، بالإضافة إلى العزلة التي تعد معادلا موضوعيا للموت، حيث عزلته الكنيسة العامة بعد وفاته، وأمرت بدفنه بعيدا عن مقبرة الكنيسة العامة، وهو موت آخر ضمني، لأنه دفن في أسوار هيراكليون، مسقط

رأسه. وهنا على الرغم من أن نيكولاس عاش حرا، ونشد الحرية، والحياة، إلاّ أنه مات معزولا بسبب الوباء بصورة إجبارية، ودفن أيضا معزولا في مكان آخر. ومن ثمة يمكن أن نفهم بأن توظيف الكاتب لهذه العتبة كان فيه إحالة ضمنية على طبيعة النص السردي الذي تضمن ثيمة الموت التي ارتبطت بالوباء، ولعل ما يؤكد ذلك طبيعة التصدير الذاتي الذي تحدث فيه عن حقيقة الوباء، وتاريخه بطريقة تخييلية استند فيها إلى التاريخ المرجعي لصيرورة الأوبئة التي مر بها العالم منذ أقدم العصور، فاختار الروائي مدينة متخيلة وسمها بكوفيلاند، والتي هي في حقيقة الأمر مقسمة إلى شقين، كوفيد التي تعني الوباء/أو وباء كورونا، ولاند والتي تعني الأرض، وهو بذلك يحاول بطريقة مراوغة أن يجمع بين المرجعي والتخييلي في سرد حقيقة الأوبئة بطريقة تمنح نصه بعدا تخييليا من خلال مدينته المتخيلة/ مدينة الموت/التي صنعها على أسس مرجعية/واقعية. يقول :"كان يا مكان كوفيلاند..كوفيلاند مدينة بمثابة وطن. قبل أن تموت كوفيلاند ممزقة إلى أجزاء صغيرة، كانت مثالا للحياة والاستمرار... قاومت كل الأوبئة منذ القرن الميلادي الأول، وما تزال مستمرة في قتالها حتى اليوم استعارت هذه المدينة أسماءها التاريخية المتتالية من الأوبئة والمحن التي مرت عليها، وعانت منها الكثير، إذ قتلت ربع سكانها الكثير من المؤرخين القدامى (...) سميت في القرن الثاني أنطونيلاند بحسب ما رواه المؤرخ لوسيان الساموسطائي وهي الفترة التي عم فيها طاعون أنطونين (...)ثم خفف الاسم في السنة نفسها ليصبح كوفيلاند وما تزال على هذا الاسم حتى الآن. حرب الأسماء الطاحنة ما تزال قائمة حتى اللحظة. جيل آخر كبر في العراء وفي برية الهزائم يريد أن يقطع نهائيا مع أسماء الأوبئة ..تستحق كوفيلاند أفضل من ذلك"[*] ومن ثمة يأخذ هذا الخطاب الذاتي بعد موضوعيا يحمل بين طياته دلالة ارتبطت بثيمة الموت التي فرضتها طبيعة الأوبئة على مر العصور، الأمر الذي يجعل هذا النص/التصدير الذاتي حاملا للوظيفة التفسيرية للنص الذي ما قبله، حيث استحضر الكاتب في التصدير الغيري الخاص بنيكولاس كزنتزاكي الوباء أيضا، ما يجعلنا نعتقد يقينا بأن هذا النص السردي يتضمن هذه الثمة/الموت. المرتبطة بالمرض/الوباء، وأن كل هذه الأحداث ستدور في مدينة الموت/أو المدينة المصابة بالوباء، أو شخصياتها تصارع الوباء، أو أصيبت به. أو تحاول أن تجد علاجا له. لينفتح النص على مصراعيه فيختزل ثيمة الموت في هذا الخطاب المقدماتي من جهة، ويجعل القارئ يتسلح بدلالات مرتبطة به من جهة أخرى.

وكخلاصة حول هذا العنصر يمكن أن نستنتج بأن النص الموازي فتح أفق التأويل أمام القارئ بل عمل على توجيهه، وتشجيعه على توليد أكثر من دلالة من جهة، وكسر قدسية النص كبنية لغوية مكتفية بذاتها لا تحيل إلاّ على ما هو محايث ضمن شبكة من الوسائط اللغوية الجافة من جهة أخرى[16].ومن ثمة عملت رواية ليليات رمادة على خلق مدركات تأويل انبنت في عمومها على ثيمة الموت بمختلف دلالاتها، ويمكن اعتبار الموت موضوعا يعج بالصراعات والتناقضات التي تأسست من الدلالة المنفتحة على أكثر من تصور، والتي تحقق بعض منها على مستوى العنوان، والغلاف، والتصدير؛ أي أن هذا الخطاب منحنا صورة من صور الموت سواء التي تمظهرت على شكل علامات بصرية، أم علامات لغوية. ولعلنا سنحاول الكشف عن باقي الدلالات وإدراكها في المتن الروائي.

5- ثيمة الموت مستوى شخصيات وأحداث رواية ليليات رمادة:

لقد استطاع واسيني الأعرج أن يبني هذا النص السردي على متناقضين تشكلا ليعبر كل منهما عن الآخر، فبين كوفيد 19 الذي يحمل بين طياته الموت، وبين الموسيقى التي تحمل في عمقها الحياة والحب، والحنين نسج لنا الكاتب روايته التي أسسها على ثيمة الموت والحياة؛ فكوفيد ومتطلباته يفرض الحجر المنزلي/عزلة قسرية، والموسيقى/موسيقى فريدريك شوبان تتطلب حالة من العزلة الإجبارية والاختيارية لغرض الإبداع/ الكتابة، ونسج المقطوعات/الليليات. ولكن مسألة الجمع بين هذه المتناقضات داخل هذا النص السردي لم تكن فقط منحصرة في مسألة الحياة والموت، بل إن الكاتب كان واعيا باستحضاره لليليات شوبان حيث شاكل بين وتيرة تصاعد الزمن داخل النص الروائي، وبين الحركات الموسيقية لشوبان، والتي تعبر كل حركة في عمقها عن دلالة معينة؛ وبين شخصية رمادة التي تعيش داخل السرد تذبذبا نفسيا ساهم في هبوط وتصاعد وتيرة السرد والزمن والحكي. وبالبحث في طبيعة هذه الليليات سنجد بأنها مقسمة إلى ثلاث حركات موسيقية داخلية، متشاكلة بطريقة منطقية مع الأحداث، والزمن، والشخصية الرئيسة رمادة باعتبارها صاحبة الليليات حيث اختارت كتابة ليلياتها على وتيرة ليليات شوبان، فقط لأنها وعدت حبيبها بذلك، لتجد نفسها في كل ليلة تستحضر ليلة موسيقية، وتكتب على غرارها ما حصل لها من أحداث تحتاج أن تدونها لتتنفس، أي أن رمادة كانت تعيش موتا ضمنيا داخل المجتمع، وتحاول أن تبحث عن الحياة من خلال الكتابة والموسيقى. فكانت تكتنز الكثير من المشاعر التي تحتاج للبوح بها، ولعل هذه الليليات الموسيقية تعبر في عمقها عن هذا الكل "الزمن/ المكان/الأحداث/الشخصيات"؛ لأن النص الروائي ككل جاء بلسان رمادة وهي تحكي، وتعايش الأحداث، وتقوم بكتابة الليليات لحبيبها شادي-الذي يعاني في الشق الآخر من الوطن- على نغماته الموسيقى التي خلفها لها في غيابه، لتتأسس علاقة شراكة بين ليليات رمادة، وبين ليليات شوبان المبنية على حركات موسيقية،سميت الأولى منها «خفيفة» لتمثِّل المقدِّمة الموسيقية، وهو ما يتشاكل مع رمادة داخل السرد، والتي عرفت بنفسها في افتتاحية خفيفة لا تحيل على ما سيحصل من صراعات وأحداث تصل إلى ذروتها داخل السرد، فتبدو في البداية فتاة بسيطة قابلة لحياتها، وواقعها، ولعزلتها الاجتماعية، والنفسية، والمرضية الإجبارية/كوفيد. تقول رمادة: "لمن لا يعرفني أنا رمادة لا يهم اسم أبي ولا جدي، الأول قتلني بسكينة الجهل واليقين الصارم، الثاني سجنني في تاريخ لم يفدني في شيء. صبورة كما العيدان القديمة. صلبة كالحديد عندما أغضب ينهار كل شيء من حولي، وأفقد/وأفقد صلابتي لهذا أداوي الغضب بالهرب منه قدر المستطاع كي لا أموت ضحية شهقة الجهل"[17]لتأتي الحركة الموسيقية الثانية «قويّة» فتمثِّل الذروة والصعود الشعوري، وهو ما يتشاكل ضمنيا مع السرد حين تبدأ الأحداث بالتصاعد لتصل إلى ذروتها من خلال الكثير من الصراعات، لعل أبرزها مسألة الوباء/الموت التي بنيت عليها الرواية تقول رمادة: "منذ فترة وأنا مثل السبعة مليارات من البشر في العالم والخمسين مليون من الانتحاريين في كوفيلاند، الذين لا يحكمهم أي حجر أو أمر، سجينة فيروس متوج بالموت شكله وردة بعشرات التيجان وعمقه عتمة قاتمة"[18]لتأتي الحركة الثالثة فتمثِّل الهبوط والسكينة. تقول رمادة: "كما الكثيرات والكثيرين قررت أن لا أمنحني

لهذا القاتل السري بسهولة ألا أسعد بموتي أن أحذر وكأن كوفيد يتربص بي وحدي. هذا الظرف الطارئ غير كليا طبعي وجعلني لا أغضب من شيء ولا حتى كوني معرضة للإصابة والموت في أي لحظة"[19]وهنا تبرز لحظة السكينة، والاستسلام للواقع المحيط بها بغض النظر عن خطورته، ولعل هذا مجرد موجز حددنا من خلاله طبيعة التماهي بين حركة الأحداث والزمن داخل نسيج الرواية؛ حيث كان الزمن والحدث الأول، والذي يمثِّل خلفية الأحداث، افتتاحيا، ثم جاء بعدها زمن "الخوف/الخوف من الفيروس، والعنف/الحياة مع كريم، ورفض الواقع/رفض العزلة، ليأتي زمن السكينة والاستسلام للأمر الواقع[20]،بعد لحظة الانفراج، وهو ما عبر عنه الروائي في نهاية سرده حين استقرت الأحداث. كما يمكن القول بأن ليليات شوبان تتشاكل بالتوازي مع شخصية رمادة في انفعالاتها، ولحظات سكينتها، واستقرارها، ولحظات تذبذبها، بالإضافة إلى أنها داخل هذا السرد كانت تستعين بهذا الفن الموسيقي، ليلة بليلة لأنه يذكرها بحبيبها شادي، فكانت تختار الليليات بحسب نفسيتها، والأحداث التي حصلت لها، والتي كانت تقوم بكتابتها على شكل رسائل ليلية لحبيبها، تقول رمادة في الفصل الثاني الموسوم بـ"كنت قد شبعت منك وتحملت غيابك "مرفقا باسم الليلة الموسيقية" chopin,Noctune2-mibémolmajeur,op9N2.1830-1832":حبيبي شادي ألم أعدك يوم قررت المغادرة بكتابة شيء كلما تمكنت من ذلك وأروي لك بيومياتي في انتظار عودتك؟ وأكدت لك أني أفعل ذلك إلاّ على الليليات الموسيقية التي جمعت روحينا وجسدينا"[21]وهنا تحاول رمادة الوفاء بوعدها لتستعيد ذكرى حبيبها، وذكرى الليلة التي عاشتها معه، لتصبح الموسيقي نوعا من أنواع الحضور، الحب، الحنين، والحياة. في مقابل الموت الذي يسيطر على العالم/كوفيد/العزلة/الظروف الاجتماعية التي تعيشها البطلة/ الضغط النفسي/غياب الحب..إلخ

إن هذا التداخل بين الموسيقي، والأحداث، والشخصية لم يكن محظ صدفة، ولا مشكلا بصورة اعتباطية، بل إن الكاتب نسج علاقة بين العزلة/كوفيد، والموسيقي/ليليات شوبان، وبين الشخصية/ رمادة/الرواية/ليليات رمادة، بصورة واعية استطاع من خلالها أن يعالج الكثير من القضايا الإنسانية، والاجتماعية، والأيديولوجية داخل نص انبى وفقا للوتيرة الموسيقية الخاصة بشوبان بحركاتها، ووتيرتها المتصاعدة، والمتنازلة، بالإضافة إلى أن البطلة رمادة-التي عانت من قسوة الأب، وظلم الزوج، وجفوة الحياة- لم تكن لتستعيد أنفاسها، وتأخذ فسحة من ضغوطات الواقع إلّا عندما تستمع إلى الليليّات/ليليات شوبان/الموسيقي، لتمارس على نفسها نوعا من العزلة الذاتية داخل العزلة القسرية/الوباء/الموت سواء أكان من خلال سماع الموسيقي ومعالجة الذات من الداخل أم من خلال ممارسة فعل الكتابة كنوع آخر من أنواع المعالجة أيضا عن طريق الفضفضة، لتعطيها هذه الدفقة الموسيقية والكتابية فرصة للخروج من الضغوطات اليوميّة، وقهر مشاعر الفقد، والبعد والاشتياق والحنين[22]لشخص كان في الأصل موسيقيا بامتياز، فتستعيده من خلال نغمات شوبان. وهنا تصبح الموسيقى جزء لا يتجزأ من البنية العامة للنص السردي، بل واحدة من أهم الأعمدة التي قامت عليها هذه الرواية. ليجعلنا الكاتب نفهم بأنه استطاع المزج بين متضادين بين الحياة والموت، فعلى الرغم من أن الطابع العام الذي يخيم على النص هو الموت، إلا أنه منح شخصياته متسعا من الحياة داخل هذا الموت. لتصبح الحياة الوجه الآخر للموت. وقد استحضر الكاتب

الكثير من النماذج التي تعبر داخلها عن ثيمة الموت بصورة رمزية ويظهر ذلك في قوله "زوجي الذي قضيت جزءا مهما من عمري واغتصب جسدي كما شاء لم ينتبه لها ولا مرة حتى لحظة انتحاره، بل لا يعنيه قد أكون قاسية في ذكر خصاله لكني أعرف أن الوردة إذا سلمتها لحمار لن يشمها ولن يقدرها لكنه سيأكلها"[23] هذا الغصب والإجبار فيه نوع من أنواع الموت؛ لأن كريم استطاع في بعض المحطات داخل السرد أن يعزل رمادة في البيت، ويعنفها وهذا موت رمزي ،فلغة العنف، والسلطة التي كان يمارسها ضدها فيها نوع من أنواع القتل لحريتها، والكاتب هنا سلط الضوء على العديد من القضايا الاجتماعية التي لا يمنح فيها المجتمع العربي للفتاة حرية الاختيار. حيث جسد لنا داخل السرد بأن رمادة لم تكن مخيرة لتتزوج شخصا غير كريم، حيث زوجها والدها، دون أن يمنح لها مساحة للاختيار، وهذا فيه قتل لشخصها، ولحرية اتخاذ القرار، ولكل ما سيأتي بعدها. ولعل هذا ما جعل الكاتب يبرر لرمادة فعل الخيانة، حيث ترى في شادي زوجها الذي اختاره قلبها، وما كريم إلا مغتصب لجسدها. ويمتد السرد إلى ما وراء ذلك؛ فبعد أن عاشت رمادة أجمل ليلة في حياتها، يحصل الفراق بينها وبين شادي بسبب سفره أولا، وارتباطه بحفلة موسيقية في النمسا/العمل، وبسبب مرضه/ إصابته بكوفيد/الموت مرادف موضوعي للموت/ يدخل تحت دائرة الحقل المعجمي له لتعيش رمادة داخل دوامة الخيبة، والانكسار، والعزلة التي أجبر عليها العالم آنذاك/عزلة كوفيد من جهة/الحجر المنزلي، والعزلة القسرية الثقافية التي كانت تمارسها كنوع من أنواع الأمل/كتابة الليليات؛ حيث كانت تكتب رسائل لحبيبها شادي وتحكي له فيها عن معاناتها داخل المخبر، ومحاطة بالموت، بحكم أنها طبيبة بعلم الأوبئة ومحاضرة في الجامعة-وهنا استطاع أن يفتح الكاتب مساحة للحديث عن الوضع الصحي المزري الذي آلت إليه الأوطان العربية بسبب وباء كورونا-بالإضافة إلى المخاطر التي كانت تتلقاها يوميا، والتي تهددها بالإصابة بهذا المرض المجهري. كما كانت تصور له داخل كل هذا المشهد المثقل بالموت معاناتها مع أهلها، ومع زوجها الذي انتحر فيما بعد. وهنا تتمظهر أوجه كثيرة للموت بصورة رمزية، وبصورة مباشرة، فداخل هذا البناء الصريح الذي يعبر عن الموت، تطرق الكاتب إلى موت العلاقات الأسرية، خاصة بعد زواج الأب/ والد رمادة بصديقة رمادة، وهشاشة المجتمعات من خلال الفساد الذي انتشر في البلاد من بيع الأعضاء، والمتجارة بها، والمتجارة بالمخدرات وغيرها، وكأن الكاتب يحاول أن يشاكل بين ما حصل في الجزائر وما زال يحصل فيها من فساد، وبين هذه المدينة المتخيلة/كوفيلاند/مدينة الموت ويستحضر كل ما يجعل هذه المدينة ضمنيا ميتة وقد كان ذلك رمزيا، ودلاليا، وبصورة صريحة من خلال المفردات التي تعبر في عمقها عن الموت، أو المرادفات الصريحة التي تعني الموت أو تدخل تحت دائرة الحقل المعجمي للموت مثل المرض، والفراق، والخيبة، والانكسار والألم النفسي، العزل، الإجبار.. وغيرها.

6. خاتمة:

ومن ثمة يمكن أن نخلص إلى أن الكاتب من خلال ثيمة الموت استطاع أن يفضح المجتمعات العربية، ويتكلم في المسكوت عنه، ويتجاوز الكثير من التابوهات، فانطلق من زمن الوباء/كوفيد، ومن مدينة متخيلة/ كوفيلاند/المكان/ندينة الموت، ومن الحجر المنزلي، فأسس من خلال شخصياته هذه الثيمة التي بنيت عليها

الرواية ليبين لنا هشاشة العائلات العربية في فترة الحجر، وهشاشة المؤسسات الصحية، وهشاشة مؤسسة الزواج المبنية على الإجبار من جهة ثانية، كما فضح كل ما يقام سرا داخل المجتمع من الكثير من التجاوزات من جهة ثالثة تقول رمادة: "**كل شيء يتهاوى كوفيد فضح هزال الدولة لا دولة الحياة هنا أصبحت بلا عمود فقري يجعلها تقوم وتسير**"[24].وعليه فتح الوباء، أو فتحت ثيمة الموت آفاقا كثيرة أمام الكاتب للحديث عن هشاشة المجتمع، وهشاشة العلاقات، فكانت منفذا لنقد الواقع، وفتح باب من أبواب الأمل، من أجل إعادة النظر في أسباب الهشاشة على جميع الأصعدة. تقول رمادة: "**عزلتنا كانت أقل قسوة لا أنا ولا بهار ولا بكر كنا نأتي إلى البيت العائلي إلاّ من أجل مرافقة أمي، وأبي لكن في النهاية لكل منا حياته، في بعض العائلات حيث الضيق السكني حدثت كوارث كثيرة العزلة برفقة بقية أفراد العائلة كشفت كل الخفايا والأمراض والعيوب القاتلة والمدمرة للنسيج العائلي، فقد تأصلت الأنانيات عميقا،وأصبح القبح اليومي لغة مستساغة وكل ما أخفته عائلات كوفيلاند خرج فجأة إلى العلن. النظام الحياتي انهار كليا، العصاب الدفين ظهر بشكل واضح الكآبة التي تصحب عادة نساء البيت أصبحت هي الوباء النسوي الأول قبل كوفيد لا أحد يتحدث عنه لدرجة أصبحت أتساءل حقيقة إذا لم تكن كل نسائنا بلا استثناء مصابات بكآبة مزمنة ورجالنا بعقدة التفوق الذكوري وامتلاك المطلق أظن أن ذلك يحتاج إلى علماء نفس حقيقيين لدراسة الحالات المستعصية عن قرب**"[25]. وهنا يتمظهر لنا الفيروس الاجتماعي الحقيقي الذي يمثل الجنون المعني للمجتمع ككل، والذي كان متخفيا منذ آلاف السنين في الأسر العربية، إلاّ أن حقيقة الوباء/كوفيد، والظرف الطارئ الصحي الذي حلّ فجأة هو الذي عرى هذا الوباء الاجتماعي وكشفه.

الهوامش

1-ينظر: جمال سنوسي، إسماعيل زغودة، فكرة الموت في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة جسور المعرفة، المجلد5، العدد1، الشلف، الجزائر، 2019/03/19م، ص425م.

2-ينظر: جميل حمداوي، المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي ينظر الرابط:،د. جميل حمداوي - المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي (arabicnadwah.com)

3- سعيد يقطين: الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2014م، ص76.

4- جميل حمداوي: المقاربة الموضوعاتية في النقد الأدبي، على الرابط الالكتروني:http://www. aralicandwah.com

5- Oxford Advanced learmer's Dictionary of current Englis,Oxford University ,Press,2010,8th edition, p,1235.

6- يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، الجزائر، جسور، ط2، 2009، ص: 151.

7- سمير سعيد حجازي: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 2001، ص:138.

8-ينظر: عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية،ط1،دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا،2009م، ص43.

9- ينظر: المرجع نفسه، ص43،43.

10-ينظر: واسني الأعرج، الصفحة الشخصية للفايسبوك، موجز عن رواية ليليات رمادة،

&id=718942396&https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=10157503358337397
ref=notif&notif_t=close_friend_activity&notif_id=1610148214275665&post_id=718942396_10157503358337397

11-ينظر: وفنادة مفيدة، عتبة الغلاف صورة للجسد الأنثوي في رواية شهقة الفرس للروائية سارة حيدر،مجلة الباحث،العدد17، ورقلة، الجزائر،ص105.

12-ينظر: عبد القوي أحمد، السيرة والتخييل في رواية/أنثى السراب لـواسيني الأعرج، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تحت إشراب الأستاذ الدكتور بلقاسم الهواري، كلية الآداب واللغات والفنون، بجامحة أحمد السانية بوهران، سنة 2012/2011م، ص37.

13-ينظر: نفسه، ص105.

* -ينظر: واسني الأعرج، ليليات رمادة، دار الآداب للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان،2021م.

14-ينظر: عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربي، مرجع سابق، ص52.

15- ينظر: نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للطباعة والنشر، ط1،الدار البيضاء المغرب،1997م، ص40.

* -ينظر: واسني الأعرج، ليليات رمادة، مصدر سابق، ص1.

* -ينظر: واسني الأعرج، ليليات رمادة، مصدر سابق، ص 3/2.

16-ينظر: بوهرور، العتبات وخطاب المتخيل، مرجع سابق، ص44.

17-ينظر: واسيني الأعرج، رواية ليليات رمادة، مصدر سابق، ص6.

18-ينظر: الرواية، ص6.

19-ينظر: الرواية، ص6.

20-ينظر: شرين ماهر، واسيني الأعرج، محاولة لتجاوز الواقع، حوار،يوم7 يوليو2021م،ينظر الرابط:https://www.dohamagazine.qa/

21-ينظر: واسيني الأعرج، ليليات رمادة، مصدر سابق، ص1

22-ينظر: شرين ماهر، واسيني الأعرج، محاولة لتجاوز الواقع، حوار،يوم7 يوليو2021م،ينظر الرابط:https://www.dohamagazine.qa

23-ينظر: الرواية، 9.

24-ينظر: واسيني الأعرج، ليليات رمادة، مصدر سابق، ص9

25-ينظر:الرواية، ص12.

المصادر والمراجع

1- Oxford Advanced learmer's Dictionary of current Englis,Oxford University ,Press,2010,8th edition,

2- - جمال سنوسي، إسماعيل زغودة، فكرة الموت في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة جسور المعرفة، المجلد5، العدد1، الشلف، الجزائر، 2019/03/19م.

3- - سعيد يقطين: الفكر الأدبي العربي البنيات والأنساق،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2014م.

4- - سمير سعيد حجازي: قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 2001م.
5- - عبد القوي أحمد، السيرة والتخييل في رواية/أنثى السراب لواسيني الأعرج، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تحت إشراف الأستاذ الدكتور بلقاسم الهواري، كلية الآداب واللغات والفنون، بجامحة أحمد السانية بوهران، سنة 2012/2011م.
6- - عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية،ط1،دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا،2009م.
7- - نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للطباعة والنشر،ط1،الدار البيضاء المغرب،1997م.
8- - واسني الأعرج، ليليات رمادة، دار الآداب للطباعة والنشر،ط1،بيروت،لبنان،2021م.
9- - وفنادة مفيدة، عتبة الغلاف صورة للجسد الأنثوي في رواية شهقة الفرس للروائية سارة حيدر، مجلة الباحث،العدد17، ورقلة، الجزائر.
10- - ينظر: واسني الأعرج، الصفحة الشخصية للفايسبوك، موجز عن رواية ليليات رمادة،
11- - يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي، الجزائر، جسور، ط2، 2009م.